«احكي لنا.. وعد ما نحكي لحدا!»

حنان زعاترة

في المقعد الثاني في الجهة الوسطى، جلست دون خوف أو تردد، وبنظرة حب وشوق للتعلم، وبحب واحترام لمعلمتي.

التف حولي عدد من البنات، لم أكن أعرف أياً منهن. رأيتهن على كرسي الدراسة. يوماً بعد يوم، وموقف بعد آخر، أصبحن صديقاتي وأغلى ما أملك.

لم يكن هناك روضات كما في هذه الفترة، دخلت إلى الصف الأول الابتدائي، كنا نلعب ونفرح ونمرح دون خوف من العقاب، والسبب أننا كنا لا نخالف القوانين. في فصل الشتاء، كنا نجلس حول صوبة الكاز ومعلمتنا تشرب الشاي وتضع الشال على كتفيها وتقرأ لنا قصة. وبعد انتهاء الدوام، كنت أذهب إلى أختي أمل التي كانت في المرحلة الثانوية، لنعود إلى البيت سوياً. كانت معلمتي تحبني جداً، وتسمح لي باللعب بالطباشير دون غيري من البنات، كنت أحصل دائماً على معدل 98، وشهادة تقدير، وعندما يسألها أهلي عني، تمتدحني كثيراً، وتقول لهم إنها طالبة مؤدبة ونظيفة ومتفوقة ومحبوبة من قبل كل المدرسة.

في الصف السابع أتذكر معلمة العلوم مروة، التي كانت تحبني جداً. شعرت أنها أمي، وليس فقط معلمتي التي أحبها وأنتظر حصتها بشوق. وفي أحد الأيام، قالت لي أمام الطالبات: «بدي مثل غمازاتك، كيف اعملتيهم، حفرتيهم حفر». البنات لما سمعو هيك انجنّو، وصارو كلهم يسألو، كيف؟ احكي لنا، وعد ما رح نحكي لحدا.

وفي أحد الأيام، قامت معلمة اللغة الإنجليزية زينب بضرب صديقتي أمام كل طالبات المدرسة، وشدها من شعرها، والسبب تغيبها عن المدرسة بسبب خطوبتها، ما جعلني أكره هذه المعلمة والمادة، وأثّر على معدلي في اللغة الإنجليزية.

مرت السنوات حتى خضت تجربة التوجيهي، وما يرافقه من خوف وقلق، وتفكير بالنجاح والرسوب؟! ولكن لم أتراجع، وفي أول يوم من أيام امتحانات التوجيهي مرضت كثيراً، ووصلت إلى قاعة الامتحان الوزاري متأخرة. ولكن تحديت الصعاب،

المعلمة حنان زعاترة تتسلم هدية مع أحد طلابها.

والحمد لله نجحت، وكانت فرحة أهلي تفوق فرحتي، لأني أول ابنة تكمل مرحلة الدراسة حتى الثانوية، ولكن ليس بالمعدل الذي أطمح به. كنت أنوي أن أكون ممرضة، ولكن لم يحالفني الحظ، فقررت أن أدرس الاجتماعيات. وما شجعني على ذلك، أستاذي القدير في المرحلة الإعدادية؛ فقد كان القدوة الحسنة والمثال الرائع للمعلم في ذلك الوقت. تعلمت منه الصبر والحنان والإخلاص والالتزام. كان هو المعلم الوحيد في المدرسة، والباقي معلمات. كنا خائفين، في البداية، من أسلوبه، وأنه سوف يصرخ ويضرب ويعاقب بشدة. ولكن كان عكس ما توقعنا، فتعامل معنا بهدوء كما يعامل الأب ابنته. وعندما لا نحل الواجب، يقول: «بسيطة، المرة الجاي أكيد ما راح تنسو». كان بعض صديقاتي في الصف يتركن ورقة الامتحان دون أي إجابة، ويقلن له لا نعرف، مع أنهن شاطرات، كل ذلك بهدف استفزازه. كان هادئاً، يحضر إلى الحصة، ويحمل معه الخرائط الجغرافية، ليعرفنا على عالمنا الذي نعيش فيه.

التحقت بالجامعة (جامعة القدس المفتوحة)، وفي الوقت نفسه كنت أعمل في مجال التصوير الفوتوغرافي الذي كان أصحابه بمثابة عائلتي الثانية. تعاونا كثيراً في العمل. خضت هذه التجربة وتعرفت على صديقات جدد، كن لي الجندي المجهول، فلم أكن أحمل هم الدراسة أو التغيب عن أي محاضرة بسبب العمل. كان بإمكاني الاستفادة من عملي في مجال التصوير، وأن أدرس الصحافة، ولكن معدل التوجيهي كان العائق الأساسي أمامي، الذي عنده تتوقف أحلامنا، فهو يأتي بعد مرور 12 عاماً دراسياً من أعمارنا، نحلم ونجتهد، ومعدل التوجيهي يغير كل شيء. فالجامعة تحدد معدلاً لدخول أي تخصص.

لكل مشوار نهاية، وها نحن وصلنا إلى نهاية مشوار الدراسة الجامعية، وهو اليوم الذي ينتظره أي إنسان بعد تعب سنوات الدراسة، وهو يوم التخرج الذي كان من أجمل لحظات حياتي؛ فيه تعبنا وضحكنا وتميزنا، حصدنا ثمار تعبنا ومسيرتنا.

كانت والدتي تقول لي، دائماً، العلم والشهادة هي سلاحك في الحياة. حصلت على الشهادة، وبعد ذلك بدأت رحلة البحث عن الوظيفة. فتوجهت إلى مدرستي التي أعمل بها حالياً (مدرسة العودة) للتدريب والتطوع واكتساب الخبرة. فكانت لي فرصة مع أطفال التمهيدي. كنت خائفة من التعامل معهم. فهل سيحبونني؟ هل سأكون لطيفة معهم؟ هل أستطيع التعامل معهم دون عصبية؟

في اليوم الأول، ذهبت إلى الروضة، وتصرف الطلاب معي بشكل غير متوقع، وردة فعل جميلة جداً. اقتربوا مني وسألوا: «مين إنت؟ إنت حلوة يا مس!». لعبنا ورقصنا سوياً. الأطفال هم أجمل المخلوقات، يتميزون بالبراءة والصدق والعفوية. أحضروا لي الهدايا.

وفي أحد الأيام، حضرت إحدى الأمهات خلال الدوام، وعندما طلبت من المديرة أن تقابلني خفت كثيراً وشعرت أني ربما أسأت إلى طفلها. ولكن كانت المفاجأة أن طفلها عندما يذهب إليها عائداً من المدرسة، يقول لها: «أنت مش حلوة متل معلمتي، مستي أحلى منك، وبتلبس أشياء حلوة!».

بعد سنتين، التحقت بالمدرسة لتعليم الصفوف الأساسية مادة الاجتماعيات (الصفوف من الرابع إلى السادس). استقبلوني بحب وفرح، علمتهم وتعلمت منهم، أصغيت لهم وأصغوا لي دون ملل أو تعب. أضحكتهم أحياناً وقسوت عليهم أحياناً أخرى (الشدة واللين)، وكان قدوتي في ذلك رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم. في بداية تدريسي، تذمر الطلاب من حل الأسئلة والأنشطة على الدفتر، فقد تعودوا على حلها على الكتاب. تحدثت إليهم بهدوء، وأوضحت لهم أن ذلك يسهّل عليهم الدراسة والفهم.

المعلمة حنان زعاترة مع طلابها خلال نشاط لامنهجي.

في العام الدراسي 2014-2015، فاجأني طلاب الصف السادس، وكنت أنا مربية صفهم، بالاحتفال بيوم ميلادي بالحلويات التي أعدتها أمهاتهم في المنازل، والهدايا، والتصفيق، والفرح، والموسيقى في الإذاعة الصباحية.

شعرت أنني كالفراشة التي تحلق من زهرة إلى أخرى. لم أفكر في قيمة الهدايا، ولكن الموقف والحب الذي أحاطني به طلابي يساوي كل كنوز العالم. شاركت زميلاتي ومديرتي احتفالي وفرحتي. شكرتهم من قلبي، وتمنيت لهم النجاح والتميز والتفوق في حياتهم.

بعد تخرجهم من المدرسة بعد إنهاء الصف السادس وحتى هذه اللحظة، ما زالوا يهتمون بي، ويرسلون لي السلام، ويتمنون لو ترجع بهم الأيام لأدرسهم من جديد.

الحياة كلها تجارب، صحيح تعلمنا، ولكن العلم الحقيقي والمعرفة تكون بين الناس، ومع الأطفال خصوصاً.

حصل معي موقف في ساحة المدرسة، فقد تشاجر طالبان من الصف السادس، وطلبت منهم الابتعاد عن بعضهما البعض، فلم يستجيبا، فقمت بضربهما الاثنين دون أن أعرف السبب؟ ومن هو المخطئ؟ وعندما دخلت إلى غرفة الصف، وجدت أحدهما حزيناً يبكي، ونظر إليَّ بألم وقال: «ليش هيك يا مس؟ أنا بحبك .. أول مرة بتعصبي وبتضربينا» .. عندها شعرت بالذنب، وتمنيت لو يعود الزمن إلى الوراء لأمنع ما حصل. ولكني اعتذرت منه على ما بدر مني من تصرف، فلم أستطع إهمال الموضوع، وتركه دون حل. مهما كبرنا، علينا تصليح أخطائنا دون تكبر أو مفاخرة.

مدرسة العودة الأساسية المختلطة/ العيزرية